باب اللغة العربية وآدابها:

1 - جوانب من الصراع الحضاري في الأدب العربي المعاصر

Aspects of the Civilizational Conflict in Contemporary Arabic Literature

بقلم الدكتورة فدوى نور الدين الخطيب

أستاذة اللغة العربية وآدابها في الجامعة اللبنانية/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية وكلية التربية

عضو اللجنة الثقافية في اتحاد الجامعات اللبنانية

Written by Dr. Fadwa Noureddine Al-Khatib

Retired Professor from the Lebanese University/Faculty of Arts and Human Sciences and the Faculty of Education in Arabic Language and Literature

Member of the Cultural Committee of the Association of Lebanese Universities

مقدمة:

كانت الازدواجية الثقافية قد أصابت الحياة العقلية للمثقفين العرب منذ بدايات القرن العشرين، وقد صيغت تلك الازدواجية بألفاظ تباينت من مرحلة تاريخية لأخرى، منها التقدمية والرجعية والأصالة والمعاصرة... إلخ.

والذي لا ريب فيه أن المفاهيم المستخدمة في طرح الإشكالية مسؤولة الى حد بعيد عن التخبط والفوضى في طرح الإشكالية التي تجعل الوصول الى حل فيها يكاد يكون مستحيلاً، وقد تتحدد المشكلة في خطأ الطرح الذي جعل مفهوم التراث مقابل مفهوم المعاصرة.

الصراع بين القديم والجديد

خرج الأدب العربي من القرن التاسع عشر حاملاً بعض المشكلات التي منها ما يتعلق باللغة ومنها ما يتعلق بالمضمون الفكري والمنحى الحضاري الذي أراده كتّاب تلك الفترة. لهذا كانت اللغة العربية وما زالت أحد الموضوعات الخلافية بين الفريقين، وكان أبرز معالم ذلك الصراع بين الفصحى والعامية، فصحى كان أصحابها يميلون إلى التقعر والأساليب المتكلفة التي حولت اللغة الى نوع من التزويق اللفظي وهي التي كانت وريثة لفترة الحكم العثماني.

هذا الصراع بين المجددين والسلفيين برز بأوضح صورة بين فئتين كونا طرفي الصراع في نظرتهم الى اللغة العربية، وتوجهاتهم المستقبلية فيما يجب ان يأخذوا او يتركوا من الغرب وحضارته.

وقد تمثلت الفئة الأولى ببعض الكتاب والأدباء الذين أتاح لهم القدر أن يحصلوا على الثقافات الغربية، فتأثروا بها ورأوا أن الغربيين قد هجروا اللغة اللاتينية الى لغات جديدة ذات جذور واحدة، وهي الفرنسية والإنكليزية والإيطالية وغيرها، فأرادوا تقليدهم بهجر اللغة الفصحى لصعوبتها في رأْيهم ولعجزها عن أداء المعاني المختلفة ولتقصيرها في التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم، فراحوا يطالبون بهجرها واحلال اللهجات العامية في البلاد العربية، وكان ابرز هذه الظاهرة في لبنان وفي مصر، الى جانب قضايا أخرى كانت من الإنكليز والفرنسيين، وهذا ما رأيناه مع الشاعر اللبناني والمفكر الكبير سعيد عقل في ترويجه لرؤية خاصة إذ لم يستطع الخروج من اللغة العربية فراح يدعو الى الكتابة بالعامية اللبنانية، فاعتمد على الحرف العربي المكتوب بالحرف اللاتيني ومرتكزا على العامية اللبنانية، التي تختلف من مدينة لأخرى ومن قرية لأخرى، معتبرا أن العربية الفصحى لا يمكن أن يكتب لها البقاء، فلا بد من استبدالها بالعامية.

لذلك أسس سعيد عقل عام 1967 داراً جديدة للنشر باللغة اللبنانية والحرف اللاتيني، أطلق عليها اسم – دار أجمل الكتب– وسعى من خلال هذه الدار الى مواصلة ما

دعاه «**ثورة اللغة وثورة الحروف**»، ولكن البداية لهذه الثورة كانت أقدم من ذلك وتعود للخمسينيات حيث ألقى سعيد عقل سلسلة طويلة من المحاضرات والأحاديث دفاعاً عن نظريته الداعية الى استبدال اللغة الفصحى باللهجة اللبنانية التي أصر على تسميتها بـ«**اللغة اللبنانية**» واستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني.

لذلك سعى سعيد عقل لتطبيق هذه النظرية فنشر ديوانه الشعري «**يارا**» معتمداً الحرف اللبناني الجديد المشتق من الحرف اللاتيني، وقد أثار بذلك موجة من السجالات والمناظرات، غير أن العاصفة هدأت بسرعة، وعاد سعيد عقل للكتابة بالعربية الفصحى وبالحرف العربي ولكنه لم يعترف بالهزيمة.

وبعد سنوات سافر سعيد عقل إلى بريطانيا وزار مؤسسة «**لينو تيب** « وعاد منها حاملاً بطاقة تعريفية طبعت عليها حروف الأبجدية العربية المبنية على الحروف اللاتينية، وأطلق دعوته الى اعتمادها مجددا دون جدوى[(1)]، إلا أن نجمه بقي ساطعاً في أسمى معاني الإنسانية يوم حمل شعره قضية فلسطين مع زهره والمدائن وفيروز.

التقى دعاة العامية بما أراده المستعمر الإنكليزي والفرنسي في مصر ولبنان في التهجم على العربية الفصحى، فالمحتل الإنكليزي حاول أن يخلق من المصريين جيلاً غريباً عن ثقافته وبيئته وتراثه الحضاري، وهذا لا يتسنى له الا إذا استطاع عزل اللغة العربية الفصحى عن الأجيال الناشئة، فحاول الإنكليز إقناع المصريين بأن سبب تخلفهم هو تمسكهم باللغة العربية الفصحى القديمة البالية. وزين لهم أن إجادة الإنكليزية والتخلي عن اللغة العربية هو الذي سيفضي بهم للنهوض من التخلف الذي هم فيه، واللحاق بركب الحضارة الغربية، وصوروا لهم أن العامية لغة حية يفهمها الشعب بمختلف أطيافه، وهذا ما أثار حفيظه الشعب المصري بأكثريته، وما تحرك به أقلام الكتاب والشعراء في دفاعهم عن العربية الفصحى[(2)] .

وقد أدت التدخلات الأجنبية إلى بروز تيارات مختلفة منها تيار ينادي بالقومية المصرية وتبث الشعور بالوطنية الإقليمية للأمة والتي تقوم في تصورهم على الانتماء الوطني لا الديني، ثم انقسمت هذه المجموعة الى تيارين تمثل أحدهما جريدة المقطم التي تصور الإنكليز في صورة إنسانية رفيعة متجاهلة دور الإنكليز في نهب ثروة وطنهم، والتيار الثاني الذي يتزعمه مصطفى كامل الذي أنشأ الحزب الوطني الحر...

(1) نقلًا عن Google أحمد الشريف الثلاثاء في تشرين الثاني 2017.
(2) د. شوقي ضيف، الأدب العربي الحديث والمعاصر في مصر ط2، دار المعارف، مصر 1961، ص 181.

ودارت السجالات بين جرائد هذين التيارين في تلك الفترة، كما رافق هذه السجالات بعض الأحداث التي أججت الفتنة على الصعيد الشعبي، ومن هذه الأحداث اغتيال وزير الخارجية بطرس غالي (1) وخطاب روزفلت في جامعة القاهرة عام 1911 والتي عكست محاولات الإنكليز تمزيق الأمة إلى مسلمين ومسحيين، وقد أدى تفاقم تلك النزعة إلى انعقاد أول مؤتمر في أسيوط((2)).

كل هذه الدعوات كانت تهدف إلى إدخال العربية الفصحى إلى المتحف أسوة باللغة اللاتينية في أوروبا، وكانت مقالات وليم ويلكوكس في الكيد للعربية الفصحى بما كان يوحيه من أن اللهجة التي يتكلمها المصريون لا تمت بصلة إلى العربية، بل إنها تتصل باللغة الفينيقية أو البونية كما دعاها، وقد انحدرت إليهم من الهكسوس في مصر((3)).

كان لضعف الدولة العثمانية أثر بالغ في ازدياد تدخل الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية بحجة الامتيازات، هذه الامتيازات التي أتاحت لأوروبا أن تشمل بحمايتها من تريد من مواطني الدولة العثمانية بغية تفتيت رعاياها الى شيع وأحزاب وطوائف لتسهيل مهمة تدخلها المباشر في ما بعد، مستغلة بذلك ما كان من التفرقة التي كانت تمارسها الدولة العثمانية بين المسلمين والمسحيين، هكذا أوجدت الدول الأوروبية المبرر في تلك المعاملة المتمايزة لبسط نفوذها، كما كان لروسيا ايضاً دور مهم في تفتيت أبناء الأمة أسوة بأوروبا فادعت روسيا حماية الأرثوذكس وفرنسا حماية الكاثوليك وبريطانيا حماية اليهود والبروتستانت (4) . ولكي تزيد كل دولة تدخلها في رعايا الدولة العثمانية، بدأت بشرح نظرياتها في اشكال الحكم معرفة المفهوم الديمقراطي الذي يتيح الحكم للشعب الذي كان في معظمه جاهلاً، والتي كانت ترمي من تدخلها إلى تعميم أساليبها للسيطرة على جموع الشعب وتوجيهه بالشكل الذي يتناسب مع مصالحها، وكان للبعثات التبشيرية والإرساليات الأجنبية الدور الفعال في نشر المذاهب الأوروبية في أقطار العالم العربي كافة، وأصبحت بلادنا مسرحاً للتيارات الفكرية الغربية من المثقفين الذين انجذبوا إلى الأفكار الأوروبية مما أدى إلى انتشار المذاهب الغربية على تنوعها من وجودية

---

(1)هو جد بطرس غالي الذي كان وزيراً للخارجية في الثمانينيات.
(2) دار شوقي ضيف الادب العربي الحديث و المعاصر في مصر ص 181ط2 دار المعارف بمصر 1961
(3) أنور الجندي، المعارك الأدبية، مطبعة عابدين –مصر شارع حمود المقاول، ص 73.
(4) موسى سليمان، الحركة العربية، منشورات دار النهار، 1970 ، ص: 21–20.
– قسطنطين بتك وفيتش، لبنان واللبنانيون، ترجمة يوسف عطاالله، دار الهدف للطباعة والنشر، 1986، ص: 18–17

إلى شيوعية أو اشتراكية أو ماسونية، وتبعاً لذلك تراوحت مشاعر الانتماء بين انتماءات وطنية وإقليمية أو قومية مما أدى إلى اختلاف مفاهيم الوطنية في كثير من المراحل التاريخية، لكننا إذا تركنا هذه الفروق جانباً فإننا نرى أن النزعة القومية قد أصبحت من أهم العوامل التي تؤثر في تطور الدول وتكون الأوطان منذ اوائل القرن التاسع عشر ((1)).

وقد كان لتصارع الثقافات ومحاولات السيادة على الأرض العربية من جانب كل من الفرنسين والإنكليز أثر كبير في تشتيت الأذهان وضياع البوصلة، فقد تميزت فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى بالمبالغة في التهجم على العربية، لغةً وتراثاً وتاريخاً.

بدأت هذه المعارك منذ عام 1914 برسالة منصور فهمي التي قدمها في باريس، فكانت هذه الرسالة إحدى مقدمات اتجاه أطلق عليه تيار التغريب، وقد شمل هذا التيار مهاجمة أسس الثقافة العربية ومنها:

– القومية العربية والوحدة العربية– مقاومة اللغة العربية الفصحى والدعوة الى اللغة العامية – الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية – مهاجمة الخلافة والاسلام والأديان السماوية بصفة عامة –اتهام العرب والاسلام بالتخلف العقلي وهي نظرية أرنست رينان – النزعة اليونانية بتجريد العرب من الرؤى الفلسفية واعتبار اليونان اساتذة العرب– تصارع الثقافات الفرنسية والانكليزية – إثارة الاتهامات حول القرآن والإنجيل – تغليب الجانب الأسطوري في السيرة المحمدية–الدعوة الى الأدب المكشوف معارك الفن للفن– الدعوة الى نقل الحضارة الغربية بخيرها وشرها، ما يحمد منها وما يعاب– إنكار فضل العرب الحضاري –الدعوة الى الفرعونية((2)).

ولم تقف دعوات التهجم على العربية لغةً وتراثاً وتاريخاً عند حدود مصر ولبنان اذ عمت البلاد العربية في محاولات الأوروبيين لخلق لغات بديلة للغة العربية، وقد عمد الفرنسيون الى استنباط قواعد اللغة البربرية، ووضع معاجم لأحرفها وكتابتها بالحرف اللاتيني، وذلك لأن البربرية لغة محكية لا حرف لها، فجمعوا الكلمات التي هي مزيج من السواحلية أي الأوغاريتية والعربية والفرنسية، ووضعوا لها المعاجم كي تصبح لغة رسمية ثانية في الجزائر الذي كانت تستعمره فرنسا حينها وعممت هذه اللغة في المغرب العربي وليبيا ايضاً.

---

(2) ساطع الحصري – آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ص 12 – مركز الدراسات الوحدة العربية 1984.
(2) عمر الدسوقي– في الادب الحديث – ص 500. – انور الجندي – المعارك الادبية ص 6–5.

كان رائد هذه الحملة المستشرق الفرنسي شارل بيلا الذي بعثته فرنسا لدراسة اللغة البربرية وجمعها واستنباط القواعد لهذه اللغة، وفي عام 1975 أراد الفرنسيون تكريس هذه اللغة رسمياً في جامعة السوربون، وقد رفض الجزائريون هذا الموقف يومها، حتى الذين هم من أصل بربري، وقد استغلت الحكومة الفرنسية وجود وزير خارجية الجزائر يومها وهو المرحوم عبد العزيز بوتفليقة في فرنسا فدعوه لافتتاح القسم الخاص باللغة البربرية في جامعة السوربون، وعندما تفاجأ بوتفليقة بقسم اللغة البربرية رفض المشاركة قائلا:

لقد حاربناكم أكثر من مئة سنة تحت شعار الله أكبر واليوم تريدون اقامة شرخ داخلي في الجزائر وإثارة النعرات وزرع بذور الاقتتال الداخلي بين العرب والبربر لتجعلونا فرقاً متطاحنة؟!

- <u>**أساليب تشويه اللغة العربية وأصل اللغات**</u>

ما زالت ظاهرة محاربة اللغة العربية تجد لها صدى في البلاد العربية، وهذا ما نراه يومياً في الإعلانات التلفزيونية ووسائل التواصل الاجتماعي وغيرها من وسائل الإعلام، وقد أسهمت جهود الأوروبيين في الكيد للغة وأصبح لدينا كتاب عرب يحقرون ويحتقرون لغتهم الأم التي نبتت من تراب شرقنا العربي ومن السواحل الفينيقية بالذات والتي منها اشتقت حروف لغات العالم اجمع منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا.

التقى تيار دعاة العامية بما أراده المستعمر الفرنسي والانكليزي في التهجم على اللغة العربية الفصحى، فالمحتل نجح ولو جزئياً في خلق جيلاً غريباً عن ثقافته وتراثه العربي وذلك بعزل لغته محاولاً اقناع الأجيال الناشئة بأن سبب تخلفه هو تمسكهم باللغة العربية الفصحى القديمة البالية.

مثل هذه الدعوات كانت تهدف إلى إدخال العربية الفصحى المتحف أسوه باللاتينية، إلا أنها لم تنجح بالكامل، فما زالت هذه الظاهرة تجد لها بعض المناصرين ولكن الذي لا بد من الإشارة اليه أن الفينيقية والهيروغليفية وغيرها من اللغات التي عمت بلاد المشرق العربي ومغربه، هي اللغة السواحلية التي عمت البلاد العربية في مشرقها ومغربها.

بدأت اللغة السواحلية عام 1300 ق.م. مع اللغة الأوغاريتية و التي انتشرت مع قوافل التجار الفينيقيين، ثم اللغة الكنعانية التي انتشرت في مدينة جبيل اللبنانية ما بين عامي

900 – 1400 قبل الميلاد، ثم الكتابة المصرية الهيروغليفية ومشتقاتها ما بين عامي 1400 قبل الميلاد الى عام 476 ميلادية، و العربية الجنوبية أي اليمن ما بين عامي 1000 ق.م. الى عام 600 ميلادية والتي منها الثمودية وهي احدى القبائل العربية واللحيانية والصفائية والسبئية والمعينية و جميعها أيضاً من القبائل العربية وقد تطورت جميعها للوصول الى الآرامية التي انتشرت في بلاد الشام ما بين عامي 900 ق.م. الى 100 ميلادية والتي كانت اللغة السائدة ايام سيدنا عيسى المسيح وبها كان يتكلم لأنها كانت لغة عصره، وإلى آخر اللغات التي سادت انطلاقاً من الشواطئ الفينيقية مع تفاوت الفترات الزمنية بينها الى نهاية مطاف تطور هذه اللغات لتصبح في شكلها النهائي اللغة العربية الفصحى التي نتداولها اليوم، وهي لغة قريش من الجزيرة العربية التي شرّفها الله سبحانه وتعالى باعتماده لهجتها في الوحي للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وللكتابة القرآنية.

القائمة

<u>الواقع الثقافي لأوروبا وبدايات موجة الإلحاد</u>

لقد تفشت الفوضى العلمية في أوروبا، قبل ظهور الداروينية، ومع ظهور نظريات داروين هب الباحثون من سباتهم في مناقشتهم لها، بالتأييد او المعارضة، وهي النظرية التي أقام عليها نيتشه فلسفته التي استبدلت الله بالسوبرمان.

كانت نظرية داروين ترصد تطور الانسان من طحلب ثم تطور، ليصبح جدنا القرد ثم إنسانا.

أقام نيتشه فلسفته على اساس نظرية التطور والارتقاء ليسير بالإنسان في طريق التطور البيولوجي ليصبح إله هذا الكون – اي السوبرمان–

ولقد توسع علماء القرن التاسع عشر في تطبيق مذهب النشوء والارتقاء فطبقوه على النظم الاجتماعية والعلاقات الإنسانية وأشكال الحكومات والمنطق والدين، هكذا أصبحت نظرية النشوء والارتقاء هي المعيار الذي اعتمده نيتشه في نظرية السوبرمان والتي تُوجب قتل الضعفاء والمرضى لا مساعدتهم، وفقا لمفهوم البقاء للأقوى، وبعد تأكيده على موت الله، ليجعل الألوهية للقوة فقط [(1)]

(1) د. مصطفى محمود، الشيطان يحكم، دار العودة– بيروت، 1986 ص 138.

ملامح الرفض والقبول في الادب العربي المعاصر

كان انتماء مصر الثقافي والقومي ورسم ملامح نهضتها هو أحد أهم أسباب الخلاف بين عملاقي الأدب والفلسفة في مصر، ودار السجال بين الفريقين حول قبول الافكار والفلسفات الغربية، فيما الفريق الاخر جهد في مجابهة الغزو الثقافي الغربي الذي كان سلامة موسى أحد أبرز رواده.

لقد مثل سلامة موسى ذروة التيار المؤيد للغرب، فانطلق يصب جام غضبه على اللغة العربية الفصحى في كتاباته واصفاً إياها بالعجز عن تأدية الرسالة الأدبية والعلمية مشيراً إلى أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصري ولا تنهض به، لأن الأدب هو مجهود الأمة وثمرة ذكائها وابن تربتها ووليد بيئتها التي ينبت فيها، لذلك اعتبر سلامة موسى أن الكتابة لا يمكن بحال من الاحوال ان تنشأ ما لم تستخدم اللغة العامية، وكذلك القصص، وقد اعتبر أن الأدب الأوروبي كله يبتدئ تاريخه من الوقت الذي عمد فيه الأدباء، كل إلى لغته، فكتب بها وهجر اللاتينية التي كانت لغة أوروبا جمعاء.

كان من أبرز دعواته الى جانب الداروينية دعوة سلامة موسى إلغاء ظاهرة الاعراب [(1)] وهي أول أسس هدم بناء اللغة العربية الفصحى وتدميرها، اذ لا يمكن ايصال المضمون الفكري والتعبير عن الأحاسيس إلا من خلال معرفة الإعراب بتشكيلاته للتمييز بين المعاني وعدم اختلاطها إلا بالتشكيل المناسب.

اعتبر سلامة موسى أن المحافظة على العربية الفصحى تجعل المصري يتفاخر بأبطال الشرق بدل أن يتفاخر بتاريخه المصري، بل إن الإبقاء على العربية الفصحى يفترض درس ابن الرومي والبحث عن أصل المتنبي والمفاضلة بين علي ومعاوية والتعصب للجاحظ.

كل ذلك نبذاً لشرقية المصري وانتمائه للعرب التي كان شديد التمسك برفضها. وما بدأ به القرن الماضي من دعوات جائرة هو بالضبط بعض ما حصل في أواخر القرن الماضي وبدايات القرن الحالي بحجة تحديث البرامج الذي قام به المركز الوطني للبحوث، وهو النسق الذي اعتمدته الجامعة اللبنانية «كلية الآداب» في تحديثها للبرامج الدراسية بتمويل من البنك الدولي.

(1) سلامة موسى– اليوم والغد – –المطبعة المصرية–مصر ص 124.

التقى سلامة موسى في طروحاته مع ويلكوكس وارنست رينان، ولعل ذلك كان تحقيقا لما أراده المستعمر، والذي يهدف الى ربط الاقطار المستعمرة بالغرب لا بالشرق لقطع أوصال تراث الشرق وحضاراته، وطبيعي أن المدخل إلى ذلك هو في قطع الأداة الموصلة لهذا التراث ولهذه الحضارة وهي اللغة.

رأى سلامة موسى أنه لا يمكن للمصري ان يواكب الحضارة الغربية المعاصرة بما فيها من علوم وصناعة إلا إذا تخلى عن الحروف العربية لاعتقاده أنه يجب ان يكون للمصريين لغة متطورة، بل متمدنة تسع للتعبير عن مئة وعشرين علماً وفناً لم يعرفها العرب الذين ورثنا عنهم لغتنا((1)) .

وهذا ما جعل سلامة موسى يفتح النار على مدرسة دار العلوم، التي عملت على تطوير اللغة العربية مع المحافظة على أصالتها، إذ اعتبر ان خريجيها من أعظم المعاكسين للرقي لأن تخصصهم حال بينهم وبين دراسات عديدة فضاق افقهم((2)) . رأى سلامة موسى أن المحافظة على اللغة العربية الفصحى تجعل المصري يتفاخر بأبطال الشرق بدل أن يتفاخر بتاريخه المصري، بل اعتبر أن الإبقاء على العربية الفصحى تفترض درس ابن الرومي والبحث عن أصل المتنبي والمفاضلة بين على ومعاوية والتعصب للجاحظ، كل ذلك نبذاً لشرقية المصري التي رفضها.

اعتقد سلامة موسى أن لا رجاء لنا بالنجاح في العالم الا إذا تملصنا مما اكتسبناه في العادات الشرقية أي العربية في نظام الحكم ونظام العائلة والنظر للمرأة والادب حتى في الصناعات والمعايش، لهذا نراه يقول: «كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي في الأدب كما أزاوله، وهي تتلخص في انه يجب علينا ان نخرج من آسيا وان نلتحق بأوروبا، وكلما ازدادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بانه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وانا منها».

لهذا كان يؤكد موقفه الرافض لموروثه الشرقي العربي وليعلن عن دوافعه بأنه لم يزاول حرفة الأدب إلا كي يعظ أمته بوجوب كفها عن ممارسة العادات التي اكتسبتها من الشرق واصطناعها عادات أوروبا((3)) . وفي ذلك يقول سلامة موسى: «خلاصة القول

(1) سلامة موسى البلاغة العصرية واللغة العربية ص 15.
(2) سلامه موسى –اليوم والغد– ص 234.
(3) سلامة موسى –اليوم والغد ص234.

أننا نطلق على أنفسنا صفة الشرق بلا حق لأننا غير شرقيين، ثم نتعصب لهذا الشرق ونقيم في أذهاننا منه غرضاً نكره الغربيين والحضارة الغربية ونتعصب للقديم»، وفي ذلك يضيف بلاد الشرق هي بلاد السلف يحكموننا وهم في قبورهم بأدبهم وتقاليد وشرائعهم؟ وما علينا سوى الإذعان. [(1)] ، ولقد كان شديد الايمان بوجوب خروج مصر من آسيا للالتحاق بأوروبا وقد جسد ذلك برواية –وادي الجهل– التي عكست موقفه من تراث الأمة العربية السابق مع طموحه لغد افضل يأتيه من الغرب المتقدم [(2)] .

لقد أراد سلامة موسى لأدب بلاده أن يكون أدباً أوروبياً قائما بنسبة 99% منه على المعنى والقصد، لا كما هو الحال عند العرب، كما أراد أن يكون أدب بلاده عصرياً في أبطاله وفتيانه، لا رجال الفتوحات العربية والدولة العباسية، كما أراد أن تكون ثقافة بلاده أوروبية، لكي تغرس في أنفسهم حب الحرب والتفكير الجريء».

اما الثقافة الشرقية، فقد طالب بمعرفتها لحسن تجنبها ، لما رأى آثارها في الشرق من عبودية، ومن الذل والتوكل على الله والخضوع لأولي الامر ظالمين كانوا او عادلين[(3)].

و قد أشار سلامة موسى إلى أن الرابطة الشرقية–أي العربية–هي إحدى الكوارث، ولهذا يرى أن انتهاج وطنيات وقوميات تسير على المبادئ الأوروبية وفي هذا يقول: «والدعوة بأننا أمة شرقية هي دعوة زائفة لا اساس لها البتة»، لهذا فهو يدعو إلى حاجته لرابطة تؤلف بين بلاده وبلاد أوروبا[(4)].

من أجل هذا يعلن سلامة موسى رايه قائلا :هذا هو مذهبي الذي اعمل له طوال حياتي سراً وجهراً، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب، في كل ما اكتب احاول أن اغرس في ذهن القارئ النزعات التي اتسمت بها اوروبا في العصر الحديث، وان اجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب ويتنصلون من الشرق[(5)]. والدعوة بأننا أمة شرقية الدم او الثقافة هي دعوة زائفة لا أساس لها البتة.[(6)]

لقد هب في وجه تيار التغريب الذي تزعمه سلامة موسى الكثير من الأدباء والشعراء في الدفاع عن تراث الشرق الحضاري ولغته القومية، لاعتبارهم تيار التغريب جزء موجه

(1) سلامة موسى –اليوم والغد ص 232.
(2) سلامة موسى، اليوم والغد، ص: 9–8.
(3) سلامة موسى اليوم والغد ص 248.
(4) سلامة موسى اليوم والغد 249.
(5) سلامة موسى اليوم والغد 250–249.
(6) سلامة موسى اليوم والغد 248.

بالإرادة الاستعمارية التي تهدف الى تقطيع أوصال الشرق، وبذلك تذبل جذور ثقافتنا القومية، وفي ذلك يقول المفكر والأديب مصطفى الرافعي: «والذين يتعلقون باللغات الأجنبية، ينزعون الى اهلها بطبيعة هذا التعلق إن لم تكن عصبيتهم للغتهم قوية مستحكمة، من قبل الدين والقومية، فتراهم اذا وهنت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم، ويتبرأون من سلفهم وينسلخون عن تاريخهم، فتقوم في انفسهم الكراهية للغتهم وآداب لغتهم، ولقومهم واشياء قومهم فلا يستطيع وطنهم أن يوحي اليهم اسرار روحه، اذ لا يوافق فيهم استجابة في الطبيعة وينقادون بالحب لغيره وهم فيه، ويرثون دماءهم من أهلهم ثم تكون العواطف من هذه الدماء للأجنبي»[(1)].

كما وصف هذا التوجه الشاعر الكبير حافظ ابراهيم الذي راح يدافع عن لغته في وجه هذا التيار فتراه يقول:

رَجَعتُ إِلى نَفسي فَاِتَّهَمتُ حَصاتي   وَنـادَيتُ قَومي فَاِحتَسَبتُ حَياتي
رَمَـوني بِـعُقمٍ فـي الشَبابِ وَلَيتَني   عَقِمـتُ فَلَـم أَجـزَع لِقَولِ عُداتي
وَلَـدتُ وَلَمّا لَـم أَجِـد لِـعَرائِسي   رِجـالاً وَأَكـفـاءً وَأَدتُ بَنـاتي
وَسِـعتُ كِتـابَ اللَهِ لَفـظاً وَغايَةً   وَمـا ضِقتُ عَن آيٍ بِهِ وَعِظاتِ
فَكَيفَ أَضيقُ اليَومَ عَن وَصفِ آلَةٍ   وَتَنسـيقِ أَسـماءٍ لِمُختَرَعاتِ
أَنا البَـحرُ في أَحشائِهِ الدُرُّ كامِنٌ   فَهَل سَأَلوا الغَوّاصَ عَن صَدَفاتي
فَيـا وَيحَـكُم أَبلى وَتَبلى مَحاسِني   وَمِنـكُم وَإِن عَزَّ الدَواءُ أَساتي
فَـلا تَكِلـوني لِـلزَمـانِ فَإِنَّني   أَخـافُ عَلَيكُم أَن تَحينَ وَفاتي
أَرى لِـرِجالِ الغَـربِ عِـزّاً وَمَنعَةً   وَكَـم عَـزَّ أَقوامٌ بِعِزِّ لُغاتِ
أَتَـوا أَهلَـهُم بِالمُعجِزاتِ تَفَنُّناً   فَـيا لَيـتَكُم تَأتونَ بِالكَلِماتِ
أَيُـطرِبُـكُم مِن جانِبِ الغَربِ ناعِبٌ   يُنـادي بِـوَأدي في رَبيعِ حَياتي[(2)]

ملامح الصراع الفكري وقضية الالوهية:

ليس من شك ان تحديد الاهداف والقدرات شرط اساسي في اي محاولة للانتفاع

(1) مصطفى الرافعي–من وحي القلم– ج3 من 157– دار الكتاب العربي ط2 بيروت.
(2) ديوان حافظ ابراهيم– صفحة 155-153– منشورات محمد دمج بيروت ط 1969.

من ثمار الحضارة المعاصرة والحضارات السابقة. من هنا كان ادراكنا الصحيح لحياتنا يتطلب استكشاف القيم التي تتضمنها حياتنا ومبلغ سلامتها واصالتها او ضعفها وخللها، ومدى ما ينبغي من تعديل بما يتناسب مع واقع حياتنا.

هنا كان الصراع على أشده بين التيارات الفكرية التي تمثلت بأهم اقطابها سلامه موسى وتوفيق الحكيم.

كان سلامة موسى يؤمن بشكل مطلق بالغرب وفلسفاته، هكذا تركزت دعواته على القبول بكل ما هو غربي، ومن المحقق ان تلك الفترة كانت غنية خصبة عقليا وروحيا بفضل ما كان يكتبه المفكرون في مختلف شؤون الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية.

كانت اوروبا قد شهدت في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وفي ظل المنهج التجريبي تغيرات جذرية عميقة في المفاهيم والقيم الحياتية ونظرة الانسان الى نفسه والى الكون المحيط به، وقامت المفاهيم العقلية التي جعلت من التجربة العلمية والمعرفة المحسوسة ميداني المعرفة الوحيدين نتيجة لمقومات المدرسة الوضعية التي لا تعترف إلا بالمادة المرئية وحدها، والتي تعتبر ان لا ثنائية بين عالمي الروح والمادة، وان لا مجال للبحث في غير عالم المادة، فعالم ما وراء الطبيعة ليس سوى الفاظ جوفاء، لهذا اعتبرت المدرسة الوضعية المادة بديلا عن الله.

اعتبرت الفلسفات الغربية ان كل شيء مردود الى مبادئ عقلية تجريبية، فظهرت نظرية داروين حول النشوء والارتقاء، والتي اعتمدت على نظرية الانتخاب الطبيعي، وهو قوة مستمرة عبر الظروف والازمان في نشوء التغيرات العضوية تبعا للحاجة، وهي النظريات التي طبقها كل من سبنسر ولامارك على علم الاخلاق ايضا.

كان ابرز فلاسفة الغرب الذين تأثروا بالتقدم العلمي والعلوم التجريبية والداروينية نيتشه، الذي لم يكن يعترف بأي عقيده دينية، لا صراحة ولا ضمنا ، وقد رأى نتشه ان العقيدة الدينية وعلى رأسها الله، هي العقبة الأساسية التي تحول دون تأكيد الانسان لذاته، لذلك فهو يدعو لإزاحه شانها بعد موتها، وعلى الانسان ان يستجمع قواه وينميها ليصبح بعدها إله هذا الكون أي السوبرمان ((1)) .

---

(1) مصطفى محمود –الشيطان يحكم –ص– 145. – سلامة موسى – اليوم والغد ص 20–9 .

لاقت تلك النظريات الأوروبية صداها لدى مفكري الشرق الذين توزعوا بين مؤيد لها ومعارض، وكان من أبرزهم سلامة موسى وتوفيق الحكيم، لقد أمن بها سلامة موسى الذي راح يدعو الى تمكين الانسان من ان يكون أكثر من إنسان، أي ان يكون إله هذا الكون. لذلك راح يدعو الى إزاحة شان الدين وفكرة الله الواردة في الأديان كي يصبح الانسان الإله الأوحد لهذا العالم، فكانت له بهذا الشأن نظرية اليوجينية، أي علم اصلاح الذريات بيولوجيا وهي مبادئ الهجاء الأولية نحو الألوهية أي السوبرمان.

اما توفيق الحكيم فقد اقام إشكالية التفاعل الحضاري على المفاهيم الدينية التي لونت المناخ الفكري لثقافة عصره، وهي نظرية النشوء والارتقاء. لقد رفض الحكيم المقاييس العقلية التجريبية التي قامت عليها المذاهب الغربية، معتبرا ان نظرية النشوء والارتقاء عند لامارك وسبنسر لن تصدق فيما يتعلق بالإنسان الا اذا ادرك وجود النموذج الأرقى الذي ينشط الرقي (أي الله)، فنمو عقل الانسان وقلبه رهن بهذا الادراك بحسب القاعدة التي تقول بتطور العضو تبعا للوظيفة، فالإنسان لا بد له من نموذج، ولا بد له من هداية وجدها توفيق الحكيم بالنموذج الأرقى ، وذلك لأن الانسان أعطي آلة مفكرة قابلة للنمو هي العقل أداة العلوم التجريبية، وآلة شاعرة قابلة أيضا للنمو هي القلب، اداة الايمان الديني في الانسان، والانسان قد تطور فعلا في راي الحكيم بناء على هذا الادراك بعقله وقلبه، ثم جاءت علوم الغرب التجريبية في العصر الحديث لتوقف هذا التطور، اذ وقف الايمان الديني في الغرب واستمر التفكير العقلي وحده يتطور في قفزات باهرات جعلت العصر الحديث ينسى النموذج الأصلي وهو الكائن الأرقى –أي فكرة الله – وهذا ما عبرت عنه تعادلية الحكيم الإسلامية باختلال التوزان بين تطور الفكر وتطور الايمان الذي عرقل سير الإنسانية في طريق التطور الكامل فردا ومجتمعاً ((1)).

تضمن ادب توفيق الحكيم مرتكزات معتقده الديني من خلال أهمية القلب المتوجه دائماً نحو السماء، وليكرس في نتاجاته أهمية القلب الى جانب العقل في النهوض الحضاري والإنساني الكامل وليصنع في ثنائيات العقل والقلب ملامح ثقافتنا العصرية بعد ان تزود بكلا الزادين وهما:

1–الثقافة العربية الاصلية بعد عصرنتها والمنطلقة من الإنجيل والقرآن.

2–ثقافة العصر السائدة، بعد تليينها وتهذبها وتطويعها بصوره الفنية ليخرج منها

(1) توفيق الحكيم – التعادلية الإسلامية والتعادلية –ص 57– مكتبة الادب ومطبعتها –الجماهير، 42 ميزان الاوبرا –الحلمية الجديدة – القاهرة.

مزيجاً هو الذي يمكن ان يطلق عليه بحق « **الثقافة العربية المعاصرة**».

اعتمد الحكيم على ثنائيات العقل والقلب كأدوات للتوازن على الصراط المستقيم بين جاذبية الأرض وجاذبية السماء ، وبين الانسان والحيوان، فهو لم يسلم مطلقاً بأن رقي الإنسان هو في تقدم أسباب معاشه المادي ولكن الرقي بالمعنى الإنساني والمثالي شيء غير ذلك في نظره، فالإنسان الأعلى بحسب مصطلحاته الأدبية والفلسفية ليس ذلك الذي يضع كل شيء في فمه، ولكنه ذلك الذي يشعر بحاجته إلى قيم معنوية وأغذية روحية لا شأن لها بضرورات حياته الجسمانية والمرتبطة بالأرض وحدها، وهو الفارق الوحيد الذي وجده الحكيم بين الإنسان والحيوان لارتباط هذه الصورة بالقران والإنجيل وقد جاء في الميراث الفلسفي الإسلامي من خلال ابن عربي والجيلاني.

اتخذ الحكيم من آلة القلب والمفاهيم الروحية الأداة الرئيسية لتمييز الفلسفة العربية الشرقية عن الفلسفة الغربية، التي كانت لديه تتفق في صفة واحدة يطلقون عليها لقب «الفلسفة المادية » وليس معنى ذلك لديه انها فلسفة خاصة بالمادة وحدها، فمعناها أوسع لديه، لذلك فهو يسميها الفلسفة الدنيوية لأنها تقوم فقط على المصالح الدنيوية.

عارض بعض مفكري العرب المعاصرين نتائج العلم الحديث وعلى رأسهم توفيق الحكيم، لذلك انتقد العلوم التجريبية في مسائل الروح، وبقى على رفضه لنتائج العلوم الغربية. كان يرى ان النظريات الحديثة لم تكتف بكل التوجهات العلمية والأخلاقية، بل تناولت جسم الجمال ومقياسه الأوحد وهو –الله– واعملت فيه المشرط والمسبار، فخرج بذلك علم الجمال الروحي من حدائق الفلسفة الى معامل المختبرات، لهذا عمل جاهدا على التوفيق بين أصول العلم وأصول الإيمان، وكان ذلك هو الهدف الرئيسي لديه لأنه اعتبر ان الاتصال بالله عن طريق العلم مستحيل فالعلم محدود والذات الإلهية لا حدود لها ((1)). وكان ذلك هو الهدف الأبرز لمسيرته الأدبية.

هكذا جعل من ثنائياته التعادلية بين العقل والقلب والخالق والمخلوق أساسا للتوازن بين العلوم العقلية والايمان الديني ((2)) .

رأى الحكيم ان الخط البارز والمظهر الغالب للعصر الحاضر هو الاقتصاد اي مطالب الارض والدم والجنس والبيئة، اي كل شيء ارضي، هكذا رأى الحكيم في

(1) الحكيم– تحت شمس الفكر–ص 14 –15.
(2) الحكيم، تعادلية الإسلام والتعادلية، ص:.146

مقومات الحضارة الحديثة ان كل شيء خاضع للشطر «غير الروحي» في الكائن البشري، وقد ادى ذلك في رايه الى سيطرة الالة والارقام على الحياة المعاصرة، فأصبحت تخضع الحياة كلها لمقاصدها المادية على النحو الحاصل اليوم.

لقد كان أول مآخذ الحكيم على الحضارة الحديثة، انها تحلم باختراع يخرج الانسان من جاذبية الارض ليلحقه بالكواكب الاخرى، فيما فضل الحكيم ان تفكر في اختراع اعظم واجدى للإنسان، اختراع يخرج الانسان المعاصر من جاذبية الارض والدم والجنس في عالم تركيبه الحيواني ليلحقه بالإنسانية العليا التي يتصورها الفكر الحر ويحسها الروح الطليق.

والانسان في مصطلحات الحكيم الادبية مخلوق يمشي بمهارة على حبل مشدود عن يمينه القلب والعقل والضمير، وكل ما دخل في نطاق العالم الروحي، وعن يساره الجسد والغريزة والدم وكل ما دخل في نطاق العالم الحيواني، والتوازن هو المطلوب، وهو امر عسير المنال في ظل الحضارة الغربية الراهنة.

اعتبر الحكيم ان لكل ملكة من حواس الانسان عوالم منفصلة، وكل ملكة لها خصائص واختصاصات، وجميعها تعكس ظاهرة تباين ألوان الحقيقة لدى كل منهما، فما يصدق عند القلب، قد لا يصدق عند العقل، فهما ملكتان منفصلتان، والحقيقة العقلية ليست الحقيقة كلها، ولكنها الحقيقة التي استطاع العقل ان يراها من زاويته، واذا كانت العقيدة الدينية مرجعها القلب، فإن العقل لن يرى منها الا الشطر الذي استطاع ان يراه، فيما يظل محجوبا عنه الشطر الواقع في دائرة القلب. فوجود الخالق الجبار لا شك فيه عند القلب، اما العقل فستظل حقيقة الخالق بعيدة عن قدراته ((1)) .

كانت أزمة الانسانية المعاصرة في رأي الحكيم أنها لم تتقدم في وسائل حكمتها بما يوازي تقدمها العلمي، ذلك أن المخالب في الانسان الأول قد تطورت من أسلحة حجرية الى سيف، ثم الى قنبلة ذرية، ولكن وسائل تحكمه في غرائزه، ولم تتطور الى حد يمكنها في كل الأحيان من كبح جماح القدرة المطلقة، وهذا ما جعله يصور انسان القرن العشرين في الحضارة الغربية بصورة عجيبة، فهي صورة المخلوق له ذكاء العالم وضمير القرصان وغريزة الحيوان ((2)) .

---

(1) الحكيم، تحت شمس الفكر، ص:15-14.
(2) الحكيم، فن الأدب، ص: 212.

اعتبر الحكيم أن الانسان يتغذى كغذاء الحيوان المادي، الا أن ما يميز الانسان لديه انه يتغذى ايضا بغذاء نوراني إلهي لا يناله الحيوان، لذلك اعتبر أن ما جاء في الأديان السماوية هو الحق، كما اعتبر ان الإنسان إذا خلع رداءه الديني فقد خلع رداءه البشري[(1)]، فهذا هو الشرط الأساسي لاكتمال انسانية الإنسان ملتزما بذلك ما جاء في الإنجيل والقرآن[(2)] .

كان الدين لدى الحكيم هو الصوت الداخلي الذي يجمّل النفس البشرية ويحكم سلوك الأفراد والجماعات، فإذا كانت القوانين الوضعية تحكم سلوك الإنسان الخارجي، فالدين كما اعتبره هو المضاد الحيوي للخطايا البشرية التي تكمن في نفس الانسان، والتي تنمو وتتراكم كما الجراثيم غير المرئية، وهي الاشعة الروحية التي تستطيع النفاذ الى الداخل وقتل هذه الجراثيم في مكامنها.

كان الله عند الحكيم هو منبع الفن والدين ومصدر الإدراك الجمالي منذ بداية الخلق، لذلك كان مأخذه على علماء القرن التاسع عشر أنه لم يحسبهم رفعوا أبصارهم الى اسلوب الله مستلهمين، إنما خروا أمام تمثال العلم ساجدين بعد أن أصبح القرن التاسع عشر عصر تأليه العلم.

اتخذ الحكيم من آلة القلب والمفاهيم الروحية الأداة الرئيسية لتمييز الفلسفة الشرقية.

انتقد الحكيم المجتمع الغربي القائم على المصالح الدنيوية وحدها لاعتقاده انه كلما كان المجتمع همجياً انطلقت غرائز الانسان فيها غير مبالية بضرر الغير، وكلما ارتقى المجتمع اتخذ نفع الغير وضعاً هاماً في سلوك الأفراد والمجتمعات. فالدين الحق هو الذي يرفع بصر الانسان الى اعلى من اقدامه وطعامه وشرابه. واذا استطاع الانسان ان يرفع بصره الى اعلى من فمه فهو ارقى من الحيوان واذا ارتفع الى تقوى الله عندها يكون سيد الكائنات فكل شيء قد يعرفه الحيوان الا الدين، ولو عرفت جماعة من الحيوان معنى الدين لانقلبت في الحال بشراً ساجدين[(3)].

---

(1) الحكيم، تحت شمس الفكر، ص: 31-30.

(2) انجيل متى 4.4 مقولة ليس بالخبز وحده يحيى الانسان بل بكل كلمة تخرج فم الله. القرآن الكريم سورة محمد صلى الله عليه وسلم اية 12 وسورة الأنفال أية 55 .

(3) توفيق الحكيم- عصفور من الشرق ص 101.

توفيق الحكيم تحت شمس الفكر ص 47.

لقد رأى الحكيم أن لقلق العصر الحديث سبباً آخر متصلاً بأمنه، فهو في كل لحظة يخشى دماره المادي بيده هو نفسه، هذا السبب في الوقت عينه نتيجة من نتائج انتصاراته العلمية، فهو قد أصبح قادراً قدرة مادية ساحقة يمكنها ان تفلت من يده، وإذا أفلتت فقد هلك. هذه القدرة الهائلة لا يلجمها غير حكمته، وهو لا يضمن كثيراً هذه الحكمة، ومن هنا جاء قلق الانسان الغربي المعاصر على سلامته وكيانه، فهو يعيش من يوم لآخر في هذا العصر الحديث ناظراً الى ميزان التعادل بعين زائغة شاردة((1)).

ظاهرة الانهزام الثقافي وأساليب معالجتها

لا ريب أنه من العبث، كل العبث القبول بإخضاع آدابنا ومفكرينا الى المقاييس المذهبية والتيارات الوافدة التي هبت على حياتنا، فالنظم الفكرية الغربية ومقاييسها هي التي ما زالت تسيطر على حياتنا الثقافية وتوجهها وتسيطر على نفوسنا وعقولنا، وهي في جملتها نابعة في ثقافة غربية مغايرة لثقافتنا،

تحكمت في صياغتها ظروف اجتماعية غربية مغايرة لثقافتنا سيطرت وتسيطر على عقولنا ونفوسنا لكننا نربط قيمنا الادبية والفكرية بها، وقد استطاعت تلك التيارات بتر مثقفينا عن ثقافتهم القومية والتأثير على وجدانهم واقناعهم بأن تلك النظم هي الأفضل ما دام الغرب قد حقق تقدمه على أساسها، وأن موروثنا بكل مكوناته لا يصلح للحياة المستقبلة، فراحت تبشر بأرض جديدة ودولة يهودية جديدة((2)) ، لا تمت الى واقعنا الأصيل بصلة. وقد واكب ذلك كله محاولات طمس شخصيتنا القومية ببتر ماضيها والانطلاق نحو أخلاقيات وقيم الحضارة الغربية، وغدا محيطنا الثقافي ميدانا خصبا لأخلاط غريبة من الثقافات الغربية الصهيونية التي تتسرب الى وجداننا بألوانها المختلفة.

هذا التصدع الفكري المطبق أمام المد الثقافي الكاسح في جبهتنا الداخلية، وما تبعه من انهزام ثقافي أمام مهب التيارات الفلسفية والفكرية والسياسية الوافدة، تتساوى فيه كافة أنماط الفكر التغريبي الغربي، كما ينطبق على الفكر السلفي الذي راح يلوذ بالفرار من التحدي بأشكال من التقوقع والضياع المختلفة.

وما هو أكيد أن معركتنا الفكرية بكل أبعادها الحضارية التي لا بد لنا من خوض غمارها يجب ان يكون سلاحنا الأول فيها إيماننا بقيمنا الموروثة ومعرفة دقيقة لملامح

(1) الحكيم – التعادلية– ص 28.
(2) غسان كنفاني – في الأدب الصهيوني ص116 – دراسات فلسطينية ط1982 مركز الدراسات الفلسطينية.

مشروعنا الحضاري الغائب والذي ضيعته الخلافات الفرعية وغياب أو تغييب المشروع الحضاري القومي.

هنا بدأ مشروع توفيق الحكيم القومي محاولاً تدعيم الثقافة الشرقية والعمل على إنهاضها لتقف الى جانب الحضارة الغربية قوية غنية، وهذا الغنى لن يأتي في رأيه الا اذا عمل كل بلد من بلاد الشرق في أول الأمر على نفسه ليستخرج منها كنوز ماضيه، حتى اذا اجتمع لدى الدول العربية قدر عظيم من ثقافته، قدم للإنسانية باسم الثقافة الشرقية كما كانت تدعى حينها في بدايات القرن التاسع عشر.

إلا أن ما يدعو للأسف عند الحكيم ان بعض المفكرين الشرقيين يشكون ويشككون في حقيقة وجود «الثقافة الشرقية» وهم الذين بهرتهم انتصارات العلوم الغربية للحضارة السائدة الآن على العالم. فأعمتهم أشعتها الساطعة وأقعدتهم يسبحون بمجدها، ويفركون أعينهم التي لا ترى سوى هذا النور المتوهج.

ذلك كان في رأيه هو العمى والعقم والكسل كما وصفه، كذلك كان لا يقر تلك الفئة من الشرقيين الذين يظنون أن التحمس للثقافة الشرقية معناها الجلوس متدثرين في أطمار حضارة بالية. يصعرون خدودهم ويصيحون بألفاظ نعرة مضحكة وفخر كاذب وذلك كان لديه أيضا هو العمى والعقم والكسل((1)).

لهذا كانت بداية مسيرته الأدبية مع رواية «**عودة الروح**» التي تعكس شخصية مصر الفرعونية، ثم رواية «**عصفور في الشرق**» التي تعكس شخصية الشرق العربي بكل تفاصيلها التاريخية والجغرافية، ثم مع مسرحية «**أهل الكهف**» التي تعكس رؤياه للزمن بين المجددين والسلفيين والتي يطالب فيها بأخذ ما يصلح للفضائل من تراثنا مع عدم التمسك بالرجعية الكافرة بالتقدم الذي وجده في الحضارة الغربية لاعتباره أنها من غير شك لديه أنها نهار للإنسانية بزغ نورها في عصر إحياء العلوم واستمر متألقا بكل أشعة العقل الإنساني وحده.

ولكن للأسف كان لنقاده الذين رفضوا أفكاره النهضوية لزجه بالفرعونية بعد تجريده من تراثه الديني واللغوي، وبعد بتر أفكاره لتحريفها الأثر البالغ في مواقفه السلبية في

(1) الحكيم –تحت شمس الفكر– ص81.

كهولته[(1)] ، فساهمت تلك العوامل بفقدان ثقته بنفسه وبأعماله جميعاً وهي التي تحمل ملامح مشروعه الحضاري. وقد جندت كثير من الاقلام لطمس مشروعه الحضاري فجعلوا مذهبه هو الفن للفن وهو ما درسناه في الجامعة اللبنانية، رغم أن مذهبه هو التعادلية الاسلامية، صحيح أنه ساهم في إقامة مسرحياته وروواياته على القوالب الاغريقية والأوروبية، حتى العبثية منها إلا أنه بقي شرقي التوجه، اسلامي الروح في كل نتاجاته حتى العبثية منها والتي كتبها كي لا يبقى هناك بابا مقفلا أمام أدباء العربية الجدد[(2)] مع احتفاظه بروح مذهبه التعادلي في نتاجه الأدبي المنوّع الذي أقام على أساسه نتاجه الأدبي في إطار رؤيه عربية اسلامية تحمل ملامح الحضارة الحقيقية التي كانت قديما في هذا الشرق والتي كانت ايضا في الحضارات الكاملة كما يدعوها [(3)] .

اعتبر الحكيم ان انهاض الثقافة الشرقية لا يكون الا بنهوض الشرقيين أنفسهم الى العمل، فيبدأون بالجري للحاق بما وصلت اليه الحضارة الغربية من انجازات مفيدة للبشرية، لا اخذ كل ما جاءت به من نظريات وفلسفات ومؤامرات. وفي إطار الانتفاع من الحضارة الغربية نراه يعارض مقولة أمين الريحاني، «أنا الشرق عندي فلسفات، فمن يبيعني بها طائرات، اعترض الحكيم على قول امين الريحاني مؤكدا ان الشرق الان ليس عنده شيء، وأن الفلسفات اليوم كانت موجودة في الشرق، كانت لديه ايضا ضروب القوة المعروفة في تلك الفترة، ويوم انتقلت الى الغرب انتقلت معها بذرة روح الاختراع، فدماغ المهندس الذي يصنع الطائرة والغوصة والدبابة، هو دماغ كونته الفلسفات والفنون المختلفة على أنواعها.

أوجب مشروع النهوض الحضاري لدى الحكيم عدم إضاعة اي جهد بشري، علميا كان ام دينيا متأصلا، هكذا جعل الانسان الامثل لديه هو الذي يمشي على حبل مشدود عن يمينه العقل والفكر والضمير، وكل ما دخل في نطاق العالم الروحي، وعن يساره الغريزة والدم وكل ما دخل في نطاق العالم الحيواني – والتوازن هو المطلوب وهو امر عسير المنال في ظل الحضارة الغربية المسيطرة، وهنا كان اول معالم سقوط هذه الحضارة في رأيه

(1) د. غالي شكري –ثورة المعتزل ص69– –دار الآفاق بيروت– ط3– 1982.
الحكيم – تحت شمس الفكر ص 46 – و بمقارنة صفحات غالي شكري وصفحات تحت شمس الفكر تظهر جليا ملامح التحريف.
(2) الحكيم – يا طالع الشجرة – عم مقدمة المسرحية.
(3) الحكيم – ادب الحياة – ص177. عصفور من الشرق ص 173.

كان يرى الحكيم ان التعادل بين تطور الفكر وتطور الايمان هو الذي عرقل سير الانسان في طريق التطور الكامل، فما من مجتمع غير مجتمعنا البشري اهتدى الى الايمان الديني لان حياة الروح لم يلج بابها من مخلوقات الله سوى الانسان الذي أعطي آلة مفكرة قابلة للنمو هي العقل – وآلة شاعرة قابلة أيضا للنمو هي القلب، اداة الاحاسيس الدينية، والانسان لا بد له من نموذج للرقي وجدها الحكيم في النموذج الارقى – اي الله حسب اصطلاحاته التعادلية. وقد انطلقت هذه الرؤية من القرآن الكريم والانجيل((1))، فالإنسان مسؤول عن وجوده، وهو الذي يتحمل مسؤولية مصيره بعد ان منح الله الحرية للإنسان منذ البداية ليصنع تاريخه الفردي والجماعي بتعاون كامل حواسه من قوى العقل والقلب امام الله يوم الحساب ((2)) .

وهنا التقت الفلسفة الإسلامية القديمة ومع المعتزلة وابن عربي بالذات مع الفكر العربي المعاصر وهي تحمل ثنائيات العقل والقلب، وهي الملامح الواضحة في فلسفة المعتزلة، وهي التي تري ان اول واجبات المُكَلّف((3)) معرفة الطاعات والمعاصي، ومعرفة الثواب والعقاب، فالله خالق الانسان قد ألزمه قديما وحديثا في رأيهم التكاليف التي هي غاية الحياة، لهذا فلن يتسنى للإنسان أداء التكاليف دون معرفة المُكَلف.

وهنا قصور العقل، لذلك ينبغي وجود القلب معه. وهي نقطة التقاء الفكر المعتزلي القديم والفكر الإسلامي الحديث لدى المفكر التعادلي. فكلاهما يتلاقى في نظرته الموحدة الى الذات الإلهية التي لا يستطيع العقل وحده ادراكها ثم في عدله بمقتضى المفهوم الإسلامي للعدل والتي تقوم أولا على مجاهدة النفس ومحاربة الغرائز الحيوانية الأرضية لأنها تعتبر ان إرادة الله تهدف الى غاية واحدة، هي مصلحة العباد جميعاً. ومصلحة العباد تقتضي «رقي» سلوكه الأخلاقي لهذا اصطلح حديثاً الحكيم على تسمية الله بـ» النموذج الأرقى الذي ينشط الرقي((4)) في فترة سيطرت فيها نظرية داروين النشوء والارتقاء .

هنا –ومع الذات الإلهية بالذات بدأت رحلة توفيق الحكيم الفلسفية ورسالته الأدبية في عصرنا الحديث، فتناول إحدى القضايا الرئيسية في هذا الكون، والتي تطرق اليها

(1) القرآن الكريم سورة محمد – ايه 12 سورة الأنفال.
ومن المسيحية ايضا – مقولة سيدنا عيسى – ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكلمات تخرج من فم الله.
(2) د. نشأت الخطيب – التاريخ والمؤرخون العرب – تصور ومنهج شركة النعمات التجارية ط1، ١٩٩٠.
(3) في القرآن الكريم (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنون)، سورة التوبة 105.
(4) توفيق الحكيم – التعادلية مع الاسلام والتعادلية، ص: ٥٢-٥٣ – ١٨٦.

فلاسفة عصره والعصور السابقة، ألا وهي الوجود في هذا الكون .. فبعد كل ما قام به الفلاسفة والمفكرين من الأبحاث والتأملات يلحظ شعور الفلاسفة هؤلاء بهذا الواحد الخفي الذي يحرك هذا الكون ويتحكم بمساره ومصيره، وقد حاول كل منهم ان يعبر عنها بطريقته وبما جاءت عليه نتيجة تأملاته فكانت في فلسفة نيتشه «القوة» التي قضت بهزيمة الإحساس الروحي وفي فلسفة برغسون «الطاقة الحية» وفي فلسفة شوبنهور «الإرادة» وفي فلسفة هيجل «المطلق» وفي فلسفة ماركس المادة وفي الأديان السماوية اسمه «الله» ((1)) .

لقد اتفقت جميع الآراء عند الفلاسفة عامة على ان هناك شيئا خفيا يحرك هذا الكون وكل الخلاف هو في تحديد الاسم، فما هو دور الله في ارتقاء الانسان فرداً ومجتمعاً ؟؟

هذا بعض ما شارك فيه الحكيم خلال مسيرته الأدبية، فقد شغلت تلك القضية كتاب عصر النهضة إذ إن هذه القضية كانت مطروحة في وجدان بعض الكتاب الذين عايشوا فترة التحضير لإقامة دولة اسرائيل وكان تيودور هيرتزل قد زف الى يهود العالم بعد مؤتمر بازل في سويسرا عام 1897 بانه سيقام الوطن القومي لليهود بناء على الوعد الالهي بعد خمسين عاما، وهو ما حصل فعلا بعد ذلك عندما تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين عام 1947 بناء على الوعد الالهي المزعوم.

انعكاس فكرة الله في الأدب المعاصر

انسجاما مع الفلسفات والافكار الحديثة أصبح الادب هو الاداة المعبرة عن مكنونات نفوس المجموعات البشرية، وبذلك تحول المذهب الانساني في الادب ليصبح مرادفا للثورة المادية التي تقترب من الالحاد بحجة مهاجمة الافكار الدينية فأصبح معها على الانسان ان يهتم بالمادة قبل الروح.

وقد حفل الادب الصهيوني باعتبار ان الاسرائيلي هو السوبرمان او الانسان الاعلى الذي نادى به الفيلسوف الالماني نيتشه الذي اعتبر أحد أكبر اعداء المسيحية. فإنسانية اليهود افضل من انسانية أي جنس آخر، ومن حق اليهودي ان يحققها عن طريق الاعتداء على الاجناس الاخرى وانتهاك ادميتها انسجاما مع معتقداتهم الدينية التي لخصها التلمود ونادى بها بروتوكولات حكماء صهيون فإسرائيل هي النموذج الارقى،

(1) توفيق الحكيم سلطان الظلام –ص 16 –17 و العادلية مع الإسلام والتعادلية من ص 60 ~ 68.
د. مصطفى محمود – الشيطان يحكم – ص: 138 دار العودة بيروت عام 1986 .
د. عبد الرحمن بدوي نيتشه ص 217 مكتبة النهضة المصرية ط1 1945.

وقد ترجم هذا الشعور نفسه في توجهات الادب الصهيوني ومضامينه الذي راح يشرح علاقة اليهود بأرض الميعاد استنادا الى تفسيره لأساطير يهودية قديمة[(1)] .

قامت النزعة المثالية عند اليهود على أنهم شعب الله المختار، وهذا ما بلوره أدب كل من تيودور هيرتزل وعجنون في نتاجاتهما الأدبية، وقد ذهبت تلك الظاهرة بهيرتزل الى لادعاء بأن الارض المغتصبة كانت صحراء لا زرع فيها الى ان زرعها اليهود الذين اتو بالنخيل الى هذه الصحراء أي فلسطين فيما يعارضه توفيق الحكيم في رواياته ويدعوها بـ «جبل الزيتون» [(2)] .

هكذا استطاع الادب الصهيوني تغييب الشعب الفلسطيني حضاريا ليحملوه وزر التخلف وتحويل أرض العسل الى صحراء قاحلة وليظهر الفلسطيني في الأدب الصهيوني ككل وفي نتاجات هيرتزل بالذات إنساناً حقيراً تافهاً متخلفاً ينعم بكسله ورمزا من رموز العداء للحضارة والعمران وعنوانا للفوضى والتخريب تحكمه نزواته ولا يحكم بغير الشر والعدوان [(3)] وهنا يناقض هيرتزل نفسه ومضامينه الأدبية في نقطتين وهما:

الصورة الأولى: هي التي جعلت من فلسطين صحراء قاحلة ولم يسكنها أي انسان قبل ان يعمرها اليهود.

الصورة الثانية: حين اعترافه بوجود شعب بهذه الأرض، هذا الشعب الذي نعته هيرتزل بكل صور التخلف والهمجية بأبشع صورها.

هكذا تجاهل هيرتزل الشعب الذي كان يسكن ارض فلسطين ليجعل من اليهود في توجههم الى فلسطين انما يقدمون خدمة للعقل الغربي وحضارته، وفي ذلك يؤكد هيرتزل أن اليهود لم يفعلوا شيئا للأرض الجديدة القديمة سوى انهم نقلوا المؤسسات المتحضرة والنماذج الاجتماعية والاخلاقية المتحضرة التي كانت موجودة في البلاد المتحضرة في اواخر القرن التاسع عشر الى الأرض الجديدة أي النماذج الغربية.

وقد عزا المفكرون اليهود لشعبهم ولأنفسهم فعل كل عمران وحضارة على أرض فلسطين وأوهموا العالم ان الواحات الخضراء في فلسطين هي من صنع المستوطنين اليهود هكذا تحول الادب الصهيوني الى عالم الادعاءات التي تجعل من اليهودي

(1) جورجي كنعان امجاد اسرائيل في فلسطين ص 4 دار الطليعة ط 1978
(2) توفيق الحكيم عصفور من الشرق ص 190
(3) غسان كنفاني، في الأدب الصهيوني، ص: 124-123

اسطورة في الشجاعة والتفوق والعطاء الانساني اما الفلسطيني والعربي فانهم لم ينتجوا شيئا يستحق المشاهدة سوى الكباريهات... إلخ((1)) .

كان تيودور هيرتزل في رواية الارض الجديدة القديمة أبرز ممثلي الادب الصهيوني، ولقد حولت تلك الرواية هيرتزل الاديب والفنان الى هيرتزل السياسي، وقد اعترف هيرتزل نفسه ان هدف روايته لم يكن فنيا بل كان هدفا دعويا لهذا كانت ارض فلسطين في أدبه تستلقي بانتظار اليهود ليعودوا اليها فيصلحوها ويسكنوها((2)) .

إن الله عند العبريين كثيراً ما يرتكب الأخطاء التي كان يصلحها الربانيون. كما اعتبروا ان الله كثيرا ما يأخذ رأي الربانيين الذين يعيشون على الأرض في المشاكل التي تنشأ في السماء. وقد جاء في التلمود سفر الامثال شرحا لذلك يقول: «ان الربانيين يعلمون أهل السماء الابرار».

لذلك كانت كلمات الربانيين هي كلمات الله الحية، ومخافة الربانيين هي مخافة الله نفسه، و من يعاكس ربانه او يجادله ويتذمر منه كمن يعاكس العزة الإلهية، وقد تمسكت جميع الكتب اليهودية بان كلمات الربانيين وشروحاتهم، مهما كانت متناقضة فإنها اتية من السماء ((3)) .

ومن نظريات اليهود ان الله هو علة جميع الشرور التي تقترف على الأرض لأنه هو الذي خلق طبيعة الانسان السافلة، وهو الذي يقود الانسان الى الخطيئة لأن الله وحده هو المسؤول عن ذلك والمخطئ في ذلك هو الله(2).

كانت نظرية نيتشه التي اعتنقها هيرتزل تعتبر ان الله هو الإنسان الذي ينمي قواه ليصبح إله هذا الكون، وهنا تظهر ملامح التناقض واضحة بين الله عند هيرتزل ونيتشه وبين ما جاء في التوراة التي تقول:

- اتخذتكم شعبا وأكون لكم إلها. ((4))

- تكونون لي خاصة بين الشعوب، مملكة وكهنة وأمة ((5)) .

(1) جورجي كنعان – امجاد اسرائيل في فلسطين – ص41

(2) غسان كنعاني – في الادب الصهيوني – ص 116 – دراسات فلسطينية ط 2 – 1982 – مركز التحرير للدراسات الفلسطينية.

(3) بولس مسعد –همجية التعاليم الصهيونية ص 27-26

(4) سفر الخروج-76

(5) سفر الخروج 91/5

– وتكونون لي قديسين، أنا يهوه إلهكم الذي ميزكم عن العالمين وقد جاء في التوراة أيضا مقولة الرب مخاطبا ابنته المدللة إسرائيل عن سائر أخواتها والمختارة من بين شعوب الأرضي جميعا قائلا ((1)):

بالوجوه الى الأرضي يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك((2)) .

–وبنو الغريب يبنون اسوارك ، فتنفتح أبوابك دائما ليؤتى اليك يغني الأمم وتقاد ملوكهم((3)) .

–ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم اما انتم فتدعون كهنة الرب تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتآمرون ((4)) . كان التفوق العرقي من المعتقدات اليهودية التي لخصتها كتب الدين اليهودية ونادى بها حكماء بني صهيون في بروتوكولاتهم خاصة سفر الخروج و نظرية السوبرمان التي ابتكرها نيتشه و دعا اليها هيرتزل(7).

استنكر بعض الكتاب العرب المعاصرين مفاهيم التفوق والألوهية عند اليهود منهم عباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم، وفي أكثر من رواية ومسرحية منها رواية «الشهيد» لتوفيق الحكيم التي يبرز فيها مفهومه للأديان السماوية الثلاثة، كما يتناول موضوع الألوهية. في كتاب خاص عن سلطان الظلام وفي مسرحية صلاة الملائكة بالذات حيث يستنكر مفهوم اليهود للألوهية، فيتوجه بالخطاب الى اصدقاء الانسانية قائلاً في وصف إله بني اسرائيل:

– «يعبدون اليوم إلهاً جديداً يحل قتل الشعوب ويأمر بشريعة الأقوى ، إلهاً ذا مخالب وأنياب: مصفحا بالصلب والفولاذ((5)).

اما الله عند بني اسرائيل كما يقول عنه عباس محمود العقاد فهو إله قبيلة، وسبب ذلك لديه ان الديانة اليهودية لا عناية لها بالدعوة الى تقبل الناس الغرباء ، وقد اعتمدت صورة الاله في التوراة والانجيل على انه متميز للشعب الاسرائيلي فقط، وهو نفس

(1) سفر لا بين 20
(2) سفر اشعيا 49/22
(3) اشعيا 6/10
(4) اشعيا 66/92
(5) الحكيم، سلطان الظلام، عن مسرحية صلاة الملائكة، الحكيم، شجرة الحكم السياسي في مصر في 1919 – 1970 ص: 25

المضمون الذي اقام عليه توفيق الحكيم رؤياه في رواية الشهيد([1]).

الضوابط الأخلاقية في الميدان الفلسفي والأدبي القديم والمعاصر

شارك أدباء العربية في مرحلة النهضة المعاصرة في بداية القرن العشرين بالإدلاء بآرائهم في القيم الأخلاقية

التي ظنوا انها تسير بالأمة في طريق التقدم والرقي، فازدهرت الفرضيات التي اقيمت على الأسس الدينية أو الالحادية، وقد رأى بعض الكتاب العرب المعاصرين ان شرط إنسانية الأنسان لا تتحقق لديهم إلا بالدين، وهو المفصل الذي أضافه توفيق الحكيم الى الصورة الأفلاطونية التي ابتدعتها الفلسفة اليونانية الأفلاطونية للإنسان، والتي جاءت على شكل عربة يجرها حصانان وسائق. كانت الصورة الأفلاطونية قد قامت على عالم الحاجات الطبيعية الغريزية، وعالم العواطف وانفعالاتها، وكل من هاتين القوتين تندفع في الصورة الأفلاطونية. فلا تتزن الا إذا جاءت قوة العقل، هكذا جاءت على شكل عربة يجرها جواد العاطفة والشهوة وكان السائق هو العقل.

وعندما جاءت الصورة الافلاطونية من أثينا الى الإسكندرية، انطبعت بالطابع الشرقي الصوفي على يدي افلاطون الأسيوطي في القرن الثالث الميلادي، وهو الذي أنشأ ما يسمى بالأفلاطونية الجديدة، حيث بدأ اللاهوت المسيحي ينسق لأول مرة بين العقيدة الدينية والعقل الفلسفي من جهة أخرى، مما رسم الطريق أمام أوروبا المسيحية بعدها([2]).

بذلك يتضح لنا ان انتقال مركز الثقافة من أثينا الى الإسكندرية، لم يكن مجرد تغير في المكان فحسب، بل كان تغيراً في منهج التفكير كذلك، ودليلا على اجتماع أمرين لشرقنا، وقد اتسمت الصورة الأفلاطونية بصفات ثلاث هي: صفة الشجاعة للعاطفة- صفة العفة للشهوة ثم جعلت من العقل العنصر الثالث القائد وهو الذي يمسك بزمام هذه العربة([3]) .

اما توفيق الحكيم في العصر الحديث، فقد عدل بهذه الصورة للإنسان، اذ جعل من الدين القيمة الاساسية التي تحكم العاطفة والشهوة، فالدين لديه هو الذي يضع للإنسان الحدود والمعايير، وهو الذي يعدل لإيجاد التوازن في اخلاقيات الانسان ومسلكه. فجعل

(1) عباس محمود العقاد – ما يقال في الاسلام، ص:43 توفيق الحكيم – أرني الله ص:21-9 سفر الخوج 76- 5/91 – عجاج نويهض – بروتوكولات حكماء صهيون ج2 ط2 ص 122 – 124 – 228

(2) زكي نجيب محمود –أماكن ومواقف، ط 4- دار الشروق 1987 ص47

(3) د. زكي نجيب محمود-عربي بين ثقافتين ص 314

الانسان المؤمن هو الذي يمسك بلجام العربة الافلاطونية، فالإنسان الممسك باللجام رمز الى هداية الدين وتخطيط العقل معا في آن واحد، وهو السائق بحياته في مسالك الارض، وبين سائر الناس والكائنات، فمن الدين يأتي الانسان السائق بالمعايير التي ترسم الحدود الفاصلة بين ثنائيات الخير والشر، والحق والباطل والارض والسماء، والانسان والحيوان. وهذا ما تجسد في أدب الحكيم وفلسفته التعادلية الذي يبرز اثر توازن العقل و القلب في الرقي الانساني وهي التي نجدها ايضا في فلسفة ابن عربي وعبدالله الجيلاني في مفهومها للإنسان الكامل قديما((1)) .

ولعل السبب في كثرة استعمال ابن عربي لتعبير الانسان الكامل هو ادراكه العميق لهذه المرتبة الكونية في تصورات المسلمين والقائلة بان الانسان الذي يتصف بالحيوانية من الجنس البشري، هو مخلوق جمع جميع حقائق العالم الارضي وحده، اما الانسان الكامل فهو مخلوق جمع جميع حقائق العالم الارضي، مضافاً اليها مجموع حقائق الحق الالهي وتوجيهاته لهذا اختلف مفهوم الانسان الكامل، عن الإنسان الحيوان في الفلسفة الاسلامية ويعود ذلك للسبب التالي:

ان الانسان الحيوان يرزق برزق الحيوان، ويتغذى كغذائه المادي، اما الانسان الكامل، فهو الذي يرزق الى جانب الغذاء المادي بغذاء الهي نوراني لا يناله الانسان الحيوان. فهو يتغذى من نور السماء، ومن علوم وطيبات الارض، و هذا لا يكون للإنسان الحيوان((2)).

لقد اتفق اكثر الفلاسفة حول الدور المعطى للإنسان، فاعتبروه ظاهرة تقوى مع التربية و الممارسة، وعلى السيطرة على توجيه الغرائز والعقل معاً ليوجهها باتجاه أهدافه ليس على الصعيد الفردي فقط، بل في الميدان الاجتماعي الذي يتحول تلقائيا و باستمرار الى ميدان السياسة((3)).

انعكس الفكر السياسي في أدب الحكيم في كل مؤلفاته، فقد زعم الانكليز ان ما يقال له مصر ليس اكثر من قطر يتبع سياسياً الدولة العثمانية، وواقعيا الاحتلال الانكليزي، أي أن مصر ليست بدولة ولا بكيان له شخصية، ففكر في ابراز شخصية مصر المدفونة

(1) د. سهيلة عبد الباعث الترجمان : نظرية الانسان الكامل عند عبدالله الجيلاني، دار المقاصد للطباعة والنشر ط1، 2011. ص:218.
(2) د. سعاد الحكيم–الموسوعة الفلسفية– معهد الانماء العربي ط1–م1986–1– مقالة تحت عنوان اصطلاح ومفاهيم ص 134 – 137.
(3) د. بشارة صارجي، الموسوعة الفلسفية، اصدار معهد الانماء العربي، م١– ط١– 1968 ص 142

في الرمال منذ آلاف السنين، فكانت **عودة الروح** هي التي بدأ بها رحلته الأدبية مركزا على أداة القلب التي كان لها الاهمية الرئيسية في إنسانية الانسان. لهذا نراه يقول في عودة الروح: «أمة اتت في فجر التاريخ بمعجزه الاحرام، لن تعجز عن الإتيان بمعجزه او معجزات: – أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون ولا يرون قلبها العظيم بارزاً نحو السماء من بين رمال الجيزة، لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الى الأبد»[(1)] .

مقومات عقيدة البعث في الأدب العربي المعاصر

كانت عقيدة البعث بوجهيها الدنيوي والديني هي التي شكلت اللبنة الرئيسية في بناء توفيق الحكيم الأدبي، وهي حقيقة إيمانية لا تحتمل الرفض او المناقشة لديه، وهي الحديقة التي أنبتت زهرات فكره لاعتقاده ان عمل الفنان ليس في امتاع الحس فقط وتخوير الشعور بل يرمي الى ايقاظ التفكير والذاتية وتدعيم الشخصية مع اعتقاده بان الفن لا يزدهر عادة الا في مجتمع بزغت فيه عوامل الاحساس بحرية التعبير والرأي، واذا لم يكن كذلك انعكست الحالة عندها ليجد الفنان نفسه معطلاً من ناحيتين، ناحيته هو الذي لا يستطيع ان ينشئ فناً يوحي بتفكير حر، ومن ناحية الناس الذين وقفت عقولهم في هذا الجو الخانق عن النمو فالجو الخانق يصيب بالعطب والعطل في الوقت عينه اداة الإرسال واداة التلقي، وبهذا يتم الشلل الفكري في الأمة، وتكف شخصيتها عن النمو والنضج في طور بدائي من أطوار الرقي البشري»[(2)].

آمن الحكيم بوجوب جعل قضايا البعث والزمن وحياً للأدب العربي المعاصر وهي من افكار مصر الثابتة التي ولدت في العصر الفرعوني الاول ولم تزل مع المسيحية والإسلام، لذلك رأى الحكيم ان مصر لم تقبل المسيحية والاسلام دينا لها لم تجد في هذين الدينين فكرة والبعث في جوهرها ولبها. وفي راية ان سبب رفض مصر دين اسرائيل هو خلوه من تلك الفكرة التي لا تعيش مصر بغيرها »[(3)] . فالواقع برأي الحكيم ان مصر كانت تؤمن ايمان عجيباً بانتصارها على الزمن بالبعث الدائم، وكان دوماً أداة هذا الانتصار هو القلب »[(4)]، وهو الذي ركز عليه تركيزاً كبيراً في مسرحية

(1) الحكيم، عودة الروح، ج2/240. و سجن العمر من 164– 155

(2) توفيق الحكيم فن الادب ص 181

(3) توفيق الحكيم من شمس الفكر ص 103

(4) الحكيم، عودة الروح، ج2/240. و سجن العمر من 164– 155

اهل الكهف وعودة الروح كما اتخذ الحكيم من آلة القلب وقضايا الزمن والبعث أساسا للتراجيديا العربية اعتقاداً منه ان سر اهمية التراجيديا انها صراع الانسان ضد قوى أخرى، هكذا كان الصراع عند الاغريق بين الانسان وآلهته، وعند الأوروبيين ومن خلال أعمال كورني وراسين حيث يقوم الصراع بين الانسان وعاطفته، اما عند توفيق الحكيم فقد وجد ان الصراع في التراجيديا العربية والمصرية يجب ان يقوم بين الإنسان وزمنه ((1)).

فالصراع بين الإنسان والزمن وما ادى اليه من فكرة التحنيط و التشييد عند المصريين القدماء، ثم الايمان بجنة الخلد في المسيحية و الاسلام، هذا الصراع بين الانسان وزمنه، أي عوامل الفناء التي تهدد كيانه وتهدد بنيانه و تحلل شخصيته هو الذي جعله اساسا في اقامة التراجيديا العربية و ذلك لاعتقاده ان فكرة البعث تصلح وحيا للأدب العربي الحديث، وهي المعيار امام الله تعالى يوم الحساب في خيارات الانسان بين الخير والشر ((2)).

وفي مفهوم الزمن اتت اسفار اليهود التاريخية تسجل ما اتاه ربهم لأجلهم، وفكرة اليهود في التاريخ تدور حول شعب اسرائيل اولا، وقد رأى بعض علماء اليهود ان الله يتصرف بالانسان دون ان يكون للإنسان موقف او دور اما فلسفة الزمن في الفكر المسيحي فلم تخرج عن كونها ملحمة مقدسة تمتد من بدء الخليقة حتى يوم الحساب والزمن ليس سوى المظهر الفعلي للصراع بين الله وقوى الشر وهو صراع بين مدينة الشيطان ومدينة الرب.

اما عند المسلمين فقد كان للزمن اثره الفعلي في التاريخ وحركته فقدم مفهوماً خاصاً للحياة ولمصير الانسان جعل فيها للفعل الانساني الدور الكبير، والانسان بهذا المعنى اصبح هو صانع تاريخه ومصيره، وذلك بعد ان منح الله الانسان مسؤولية صنع تاريخه الفردي والاجتماعي بحرية لتشكيل مصيره بتعاون حواسه من قوى العقل والقلب والتي يتشكل منهما معاً مسؤولية الانسان امام الله يوم الحساب ((3)).

---

(1) الحكيم مسرحية **اهل الكهف** ص: 155. **وعودة الروح** ج 2، ص:240 –245 وتحت الشمس وهي مقدمة **مسرحية الملك أوديب**، ص:41–40–29

(2) الحكيم تحت شمس الفكر ص 102 103

(3) د. نشأت الخطيب التاريخ والمؤرخون العرب ص 88

كان لمسؤولية الانسان امام الله تعالى هي الأساس الذي بدأ به الحكيم مسيرته الادبية مع عقيدة البعث متخذاً من القلب الأداة المحركة في مختلف الاتجاهات هكذا تحرك القلب في رواية عودة الروح كما هو في رواية عصفور من الشرق في اتجاه ازدراء الحضارة الغربية المعاصرة وعلومها العقلية التي لا تسمح للناس ان يعيشوا الا في عالم واحد وهو سبب رفضه لها، مفضلاً عليها الحضارة الشرقية التي تسمح للإنسان ان يعيش في عالمين، لذلك فهو يقول في رواياته المختلفة:

ان الغرب يكتشف الارض والشرق يكتشف السماء ((1)).

وفي تعريفه للعلوم وانواعها يقول في صوره الادبية: العلم علمان: «العلم الظاهر والعلم الخفي»، وان اوروبا حتى اليوم طفلة تعبث تحت اقدام ذلك العلم الخفي، الذي كانت حضارات أفريقيا وآسيا قد وصلت به الى قمم المعرفة البشرية. إن قمم المعرفة البشرية هي مجاهل ذلك العلم الخفي الذي لم يدخل قط عقل أوروبا، لأن وسائلها لا تهيئها الا لفهم مظاهر الحياة السطحية.... انّها مدينة لا تعترف الا بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق عقلها، ولا تقوم الا على عالم المحسوس، ان عين الأوروبي لا تقع الا على سطح الأشياء، ولا تقوم الا على عالم المحسوس... ان هي الاّ مدينة ناقصة، لأنها لا تعرف العيش الا في عالم واحد ((2)).

كما انتقد بشدّة المسار الأخلاقي للحضارة الغربية ومصير العلم فيها بقوله:

- «تلك هي نتائج العلم التطبيقي عندما ترك في أيدي الأوروبيين، وذلك أثره في النّفس الانسانيّة، تجد أنّه استحال قنابل وغازات خانقة وطوربيدات وغواصات ودبابات الى آخر ذلك الابداع والتفنن في وسائل الفتك بأجسام البشر.... فالعلم التطبيقي في الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحاً وجسماً...

- انّ العلم تلك الماسّة العظيمة لم تضعها أوروبا في قمة عمامتها لتشع نورًا وجمالًا، ولكنها وضعته في سن مخرطة بخارية لتقطع ذلك الكأس العظيم، كأس البشرية الممتلئ بما روحها ومادة جسدها ((3)).

(1) الحكيم عصفور من الشرق ص 103 وص:188 و190
(2) الحكيم- عصفور من الشرق- ص 188
(3) الحكيم- عصفور من الشرق ص 179- 181

– وعن خصائص الشعوب بين الشرق والغرب نراه يقول في بحثه عن جذور كل شعب وبأسلوبه الإنشائي المميز:

- اذا كانت الأديان السماوية هي الحق، فلا بد أن تكون قديمة قدم الحق أو على الأقل قدم الانسان، فالأنبياء اذن لم يخلقوا الحق بظهورهم، ولكنّهم كشفوا عن وجوده الأزلي، اذن فلا غرابة على ضوء ذلك من البحث عن منابع الوثنيَة في قلب الانسان من يوم ظهوره على هذه الأرض[(1)].
- قلت وأقول الجوهر باق دائمًا[(2)].
- أين اذن قانون الوراثة الذي يصدّق حتى على الجماد[(3)].
- إنّ الفرق بين عبقريّة الغرب الروحيّة، وعبقريّة الشرق الرّوحية كالفرق بين المشعوذ والمسيح[(4)].
- لا تنكري أن المعجزة تتخذ لون الأرض التي تظهر عليها، وأن العظيم يتغذى ككل نبات بعناصر التربة التي ينبت فيها.... لا تحسبي عبقرية ألمانيا أو أوروبا تصلح لإبراز نبي من أنبياء الشرق[(5)]...

وفي وصف الحضارات القديمة التي جعلت الناس يعيشون في عالمين يقول: «لقد عرفت تلك الحضارات العلم، والعلم التطبيقي فالحضارة التي تشيد الأهرام لا يمكن ان تجهل العلوم التطبيقية، ومع ذلك فالعلم لم يفسد من الرؤوس زجاجات الصور التي تمثل الحياة الأخرى. تلك الحضارات يسميها الحضارات الكاملة[(6)].

وفي وصفه للعالم الغربي الذي يعيش في عالم واحد يقول في صوره الأدبية: «ان الغرب انما عاش أجمل حياته في ذلك الحلم السماوي الجميل وذلك العالم العلوى الذي صنعه الشرق .... وان ضياع الغرب لم يبدأ الا يوم افاق من هذا الحلم لينزل الى عالم واقعه يدب في هضابه المتحجرة ووديانه الجافة كما تدب الحشرات[(7)].

(1) توفيق الحكيم – زهرة العمر– ص 329
(2) توفيق الحكيم –عودة الروح ج 2– ص 62
(3) توفيق الحكيم – عودة الروح ج 2– ص 55
(4) توفيق الحكيم – عصفور من الشرق– ص:183
(5) توفيق الحكيم – حماري قال لي – ص:38
(6) الحكيم –عصفور من الشرق – ص 172
(7) الحكيم– عصفور من الشرق ص 103

وعن نتائج الإلحاد يقول:

- ما من شخص يجحد الله الا ويجحد الانسان [(1)].

- اني اخشى ان تكون أوروبا موشكة على دفع الانسانية الى هوة[(2)]. .

كل شيء في هذه المدينة الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الإنسانية العليا وصفاتها الادمية السامية. [(3)]

وعن واقع العالم العربي المتردي امام حضارة الغرب يقول: «مركب النقض في الشرق يخيّل إليه دائما ان الغرب لا يمكن ان يتأخر، وما الغرب في حقيقة الامر الا متخلف جدا في كل شؤون الروح والحكمة العليا[(4)].

وعن واقع العالم العربي يقول أيضا في صوره الأدبية:

ان ثياب الشرق الجميلة النبيلة، وهي اليوم خليط عجيب من الثياب الاوروبية يثير منظره الضحك كما يثير منظر قردة اختطفت ملابس سائحين من مختلف الاجناس وصعدت فوق شجرة ترتديها وتقلد حركات أصحابها[(5)]

وعن ممارسات العالم الغربي يقول:

-الغرب.... كل منبع للسعادة يسممه الغرب، حتى منبع الدين، وكل جار له يحطمه، حتى لو كان مصدرا للعلم والتفوق والاختراع[(6)].

وعن تأثير ذلك على العالم العربي يقول:

-نعم اليوم لا يوجد شرق، انما غابة على اشجارها قردة تلبس زي الغرب على غير ادراك ولا ترتيب ولا فهم ولا ادراك[(7)] .

ثم يفصل في نظرته لمقومات الشرق والغرب قائلا: «ان طابعنا الفكري وطريقة نظرتنا الى الاشياء وتقاليدنا واحساسنا بالجمال الذهني ومشاعرنا كل ذلك ينم عن عقلية

(1) الحكيم – عصفور عصيا الحكيم ص41
(2) الحكيم عصفور من الشرق ص108
(3) الحكيم عصفور من الشرق ص180
(4) توفيق الحكيم –فن الادب 119
(5) توفيق الحكيم– عصفور من الشرق ص190
(6) توفيق الحكيم فن الادب ص117
(7) توفيق الحكيم عصفور من الشرق ص189

خاصة وعبقرية مستقلة لا ينبغي ان تتحلل أو تتزايل تحت طغيان موجه اقوى... فاذا نادينا بالوحدة العربية فإنما ذلك لندعم كتلة الروح الشرقي امام كتلة الروح الغربي ثم يرفع صوته قائلا ان الشرق لن تقوم له قائمة إذا بقيت فيه ذرة في روح التنابذ والتحاسد فإن لم يسعفنا التعاون والتساند فلنوقن بسقوطنا العاجل بين فكي الغرب النهم»[(1)].

وعن حال اوروبا تاريخياً يذكر قارئه قائلا: «لا تنس ان اوروبا هي الوحيدة التي أعدمت في يوم علمائها حرقاً واتهمتهم بالسحر والجنون وخنقت حرية الرأي حتى في شؤون الأدب والفن، وجعلت من المسيحية التي تبشر بالمحبة سلاحا للفتك امام محاكم التفتيش»[(2)].

لأجل ذلك نراه ينذر بسوء المصير قائلا: «إنذار بالويل فقد طغت شهوة الاستبعاد في أمم تسمي نفسها راقية»، فنبذت تعاليم اولئك الذين يوم عرفوا انفسهم كشفوا للإنسانية عما بها من جمال وصفاء وسلمت نفسها لأولئك الذين جهلوا انهم جهلاء فايقظوا فيها غرائز الجشع والظلم والدماء »[(3)].

كل هذه الصور التجريدية كانت لاعتقاده بأن سيطرة الغرب على الشرق اليوم لا تكتفي بالإخضاع المادي والاقتصادي، انها تشمل ايضاً الاخضاع الروحي، ثم يضيف: من يسلبك بلدك يسلبك روحك.

بريطانيا في الشرق الاوسط والهند، وفرنسا في شمال افريقيا، عين الخطة والطريقة، و ليس الباعث في كل الأحيان أصبع الاستعمار وحدها، ولكن وجود غالب ومغلوب يؤدي حتماً الى تغلب روح على روح، وفكرة على فكرة ليتلاشى المقهور في القاهر»[(4)].

لذلك يناشد العرب الشرقيين قائلاً:

«الروح والجوهر... هنا نقول للغرب قف، حذار ان تمس هذا الجانب في الشرق، مهما يكن من أمر اتهامه لنا بالرجعية، فنحن اقدم عهدا واكبر سنا...ونحن نعرف انه الآن في شبابه المتقد لا يمكن ان يتريث ليبحث عن معونة، ولكن غدا عندما يقعده الكبر وتذله الهزيمة ويذهب عنه الغرور ربما وقف لحظة وتلفت حوله يلتمس الهداية، فلن يجد له

(1) توفيق الحكيم قمت تسمى الفكر ص 111
(2) توفيق الحكيم من البرج الحاجي ص 179 و توفيق الحكيم عصفور من الشرق ص 180 181
(3) توفيق الحكيم حمار الحكيم ص 160
(4) توفيق الحكيم فن الادب ص 124

عندئذ من هاد غير الشرق مهبط الحكمة ومنبع النور ((1)).

هكذا نراه يكمل تحذيراته قائلا:

الواقع يقول لنا... اتبعوا الشمس حيث تسير، وافحصوا كل شبر من أرض يقع عليه منها شعاع ... تجدوا راية غربية، وفتوحا حربية ومطامع استعمارية ((2)).

وفي كيفية التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب نجده لا يقع بالعنصرية البغيضة، اذ كان يرى ان هذا العصر هو عصر صراع لا بين القوى المادية وحدها بل بين القوى الفكرية ايضاً، لذلك نراه يقول فيما يجب ان نأخذ من الغرب بأنه يجب أن:

« نأخذ ما في رؤوسهم وأن ندع ما في نفوسهم، ذلك أن إحساسنا ملكنا وإحساسهم ملكهم، فالشعور طابع شخصي لا ينقل ولا يستعار، ولكن المعرفة ملك مشاع يتداوله الجميع، فما من شعب في هذا المعترك العالمي الحاضر، يغتفر له الجهل بعلم من العلوم، او أدب من الآداب، أو فن من الفنون، ولن تقوم للشرق نهضة حقيقية الا اذا احاط بكل معارف الأرض إحاطة شاملة، ثم صهرها في قلبه، واخرجها مرة أخرى معدناً نفيسا يشع أضواء جديدة ((3)).

أثر عقيدة البعث الدينية في الفكر الفلسفي المعاصر

حمل بعض الادب العربي المعاصر ملامح فلسفة العرب الدينية لاعتباره أن لا أصالة صادقة دون معاصرة فاعلة...، هذا ما تقوله الفلسفة الوجودية المعاصرة، فماضي الانسان مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحاضره ومستقبله ليس سوى امتداد لذلك الماضي... والذاكرة التاريخية هي التي تحفظ للوجود الفردي والجماعي وحدته، وهي التي تجعل حياته متماسكة ملتحمة الأسباب والنتائج، والتاريخ ذاكرة الشعوب والأمم الذي يحفظ لها وحدتها، وتختزن فيها مفاخر ماضيها وآمالها بالمستقيل، والأمة التي فقدت تاريخها هي اشبه بالإنسان الذي فقد ذاكرته، فهو ضائع لا يدري له اصلاً، حائر لا يعرف مستقراً....

من هنا راح بعض المفكرين المعاصرين يحضون للإبقاء على ما هو ثابت في تراثنا وجدير لإقامة أساس جديد لانطلاقة ناهضة لأمتهم في وجه الماسونية بمختلف وجوهها الإلحادية والداروينية والماركسية والعلمانية والصهيونية.

---

(1) توفيق الحكيم فن الادب ص 121
(2) توفيق الحكيم – فن الادب من 116
(3) توفيق الحكيم – فن الادب من 122 – 123

ومن هنا انطلق الفكر العربي المعاصر الى الحض على ما هو ثابت في تراثنا وجدير لإقامة اساس جديد لانطلاقة حضارية ناهضة لأمتهم وقد وعت المنهج السماوي للمعرفة قيماً رفيعة قررت كرامة الانسان وأعلت شرف العلم وغاياته واعزت آدمية الفرد وحفظت حياته، لا على شكل صراعات دموية كما أرستها وامتدت بها حضارة محاكم التفتيش – ونعني هنا الحضارة الغربية التي أقامت اسرائيل كنتاج طبيعي لمقوماتها الاخلاقية.

من هنا جاءت الصورة لأحد اقطاب الفكر العربي المعاصر للمفهوم الخاص بالإنسان والحيوان، وهي الفلسفة التي اقام عليها توفيق الحكيم صوره الفنية وفلسفته التعادلية، القائمة على الثنائيات، ثنائيات الخالق والمخلوق والأرض والسماء والدنيا والآخرة... إلخ.

حيث كان جوهر التعادلية لا يعني التساوي والاعتدال او التوسط في الأمور، بل يعني التقابل او القوة المعادلة، وإذا لم يفهم معنى الكلمة على هذا الوضع فإن التعادلية تفقد حقيقة معناها ومرماها، فالتعادلية هي الحركة المقابلة والمناهضة لحركة أخرى، فالواحد الصحيح في التعادلية يساوي صفرا في اصطلاحاته.

والحياة الإيجابية تبدأ من العدد «اثنين» اذ بوجود شيئين توجد علاقة بينهما، أي الحركة والحياة، وكل حركة يجب ان تقابلها وتناهضها حركة، وكل قوة يجب ان تعادلها قوة، فقوة السلطان في التعادلية هي حركة سلبية لا بد لها من حركة مقابلة ومعادلة لها في القوة وهي قوة المحكوم لتبدأ في المجتمع حياة إيجابية. فالتعادلية في جوهرها ترى ان الواحد الصحيح وجود سلبي وهو خطوة بعد العدم، وهو من حيث الحركة الإيجابية يساوي صفرا، لأنه لا يقام غيره. ولا يجد من يقاومه، وبانعدام المقاومة تقف الحركة، هكذا كانت الحياة الإيجابية في التعادلية الإسلامية لا تبدأ الا من العدد «اثنين».

ولكي يظل الاثنين موجودا دائما يجب ان يحافظ كل واحد فيه على قوته الخاصة، فاذا تضخم واحد على حساب واحد آخر، او ابتلعت قوة أحدها قوة الآخر، رجح العدد اثنين الى واحد صحيح، أي الى الوجود السلبي.

– التعادلية اذن تفسر الحياة بأنها ضرورة وجود جملة قوة تتقابل وتتوازن مناهضة بعضها في الكون والمجتمع. وان العدم يبدأ بابتلاع جميع القوى في واحد صحيح – الواحد الصحيح هو السكون–.

والأعداد المختلفة المقابلة هي الحركة المعادلة المناهضة هي فلسفة الحركة المقابلة المعادلة..... أي الحياة. لهذا دعت التعادلية لاحتفاظ الفرد والمجتمع بقوته الخاصة حرة مستقلة لتعادل بها وتقابل القوى الأخرى التي تريد ان تبتلعها بذلك تقاوم وتحيا.

التعادلية هي مقاومة الإبتلاعية:

هكذا تقول التعادلية: عادل وجودك كما فعلت ارضك ازاء الشمس..... وازن نفسك تجاه القوى المواجهة.... والا ابتلعتك وأصبحت وقوداً لها وطعاماً وصرت عدماً.

ومما تقوله التعادلية ايضاً:

كل قوة تتضخم تريد ابتلاع غيرها .... ففي المجال السياسي والاجتماعي مثلا» الرأسمالية ارادت ابتلاع العمل... الاستعمار يريد ابتلاع الشعوب الطبقة القوية تريد ابتلاع الأمة كلها..... الغرب يريد ابتلاع الشرق. والتعادلية هي فلسفة القوة المقابلة والحركة المقاومة للابتلاعية ((1)) .

هكذا نرى أن القيم الدينية والروحية ليست مجرد ترف عقلي انما كانت ضرورة بشرية واجتماعية فمن دون الأخلاق يستحيل الانسان الى حيوان، وهو المفهوم الذي كان قديماً في الفكر الفلسفي وهو نفس المفهوم في الفكر الفلسفي المعاصر، فالذي يفرق الإنسان عن الحيوان هو الكم المضاف إليه من قيم، ليس فقط من معلومات وانما من قدره على ترتيب تللك القيم بحيث يستطيع الفرد وبعد حسن تنميته وتوجيهه ان يستخلص لنفسه فلسفة او نهجا» يزاول بها حياته فالإنسان دوناً عن الحيوان مزود الى جانب الغريزة بعقل لا بد ان يعمل واذا لم يعمل هذا العقل في اتجاه صالح فلا بد ان يعمل باتجاه خاطئ واحياناً اجرامي وهو ما نراه واضحاً جلياً بإقامة إسرائيل.

لذلك كانت اولى فضائل الفرد التمسك بتراث امته الحضاري وقيمها الروحية والاخلاقية حيث ميزت بين الانسان والحيوان، فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي كلفه الله في اعمار الارض لا تدميرها ، وهو المخلوق الوحيد المطلوب منه ان يمشي على الصراط المستقيم بين جاذبية الارض وجاذبية السماء وان يعمل للعالمين معاً ليس فقط للعالم الأرضي الذي هو كل عالم الحيوان طوال مسيرة حياته، وهي الثنائية التي توازن بين العقل والقلب التي كانت قديما» في

(1) الحكيم – التعادلية مع الاسلام والتعادلية ص: 158-157-156-155

الفلسفة الإسلامية.

من هنا جاء المفكر التعادلي المعاصر توفيق الحكيم بآلهة البعث (ايزيس) من مصر الى لبنان مروراً بالأقطار العربية كافة تجمع منها اشلاء زوجها المبعثرة (اوزيريس) وبعد هذه الرحلة الطويلة تتجح (ايزيس) في جمع اشلاء زوجها في الجنوب اللبناني لتعيد إليه الحياة مع اناشيد لصيدا وصور والمقاومة وقد اهدى هذه المسرحية الى جيل عربي جديد ومختلف عن الجيل الذي كان يعرفه جيل لم تسقط هاماته شموسهم لم تنطفئ [(1)] .

هكذا رأينا في أدبنا العربي المعاصر التقاء جدية العلم بمفاهيم الأديان السماوية وصرامة الفلسفة ووقارها مع عبثية الفن الروائي ليكونوا جميعاً تتويجاً صريحا وصارخاً لسخرية المصير وسوء التقدير.

(1) مثلث هذه المسرحية على خشية المسرح القومي في القاهرة ببطولة كرم مطاوع وسهير المرشدي الى جانب فريق كبير من الممثلين